هل دراسة اللهجات العربية ثورة على لغة القرآن الكريم؟ أو خدمة لأمة العرب؟

بقلم الدكتور عبد الله عباس الندوي

ان الحديث عن اللغات الدارجة او (اللغات العامية) ليس بدعا فى القضايا اللغوية أحدثه اللغويون المعاصرون . فان اللغات العالمية كلها بدون استثناء خاضعة لناموس التطور الذى يقر بوجود تعدد اللهجات بين ابناء الاقليم الواحد ، نتيجة للعوامل الاجتماعية التي تتحكم فى سلوك الفرد والمجتمع. ولنتصور كيف ينشأ الإختلاف فى النطق وطرق الدلالة على المعاني. يمكننا ان نتخيل أخوين ... يعيشان معا ولكنهما لايمارسان مهنة واحدة ، وكل واحد منهما يحتك فى حقل عمله بمجموعات مختلفة من العاملين ويأخذ منهم اللغة ويستعير منهم تعبيراتهم الخاصة فى عادات التفكير والاعمال وآلات المهنة وبذلك ينشأ كل يوم بين الاخوين اختلاف فى طرق التعبير واللهجة وهذا الاختلاف اللغوى يؤدى بهما اذا لم يثر احدهما الآخر زمنا طويلا إلى التحقق من انهما يتكلمان بلهجتين مختلفتين . وهكذا كل اسرة بشرية مهما كان عدد افرادها قليلا لا تستقر على حال واحدة للابد انها تتوسع وتتشعب ويتجه افرادها اتجاهات مختلفة ويتفرقون فى امكنة مختلفة ، وكل واحد منهم يكون اسرة جديدة ، وينضم إلى مجموعة غير المجموعة التي خرج منها ، ويأخذ من عادات التفكير وأساليب الحياة الاجتماعية ما يبعده كل يوم من عادات وأساليب ورثها من الاسرة الاولى التي خرج منها هو اوآباؤه . وحيث ان اللغة ليست الا مظهرا من مظاهر الاجتماع فهى قابلة للتغير والاختلاف مثل المظاهر الأخرى . وهذا أمر مشاهد ملموس لايقبل الجدل او الشك فى تحققه . ولكن هذا

الواقع لا يمنعنا من الاعتراف بوجود عامل أقوى من العوامل الاجتماعية السطحية وهو العامل الديني الذى يتحكم فى جميع افراد المجتمع مهما تباعدت امكنتهم او أختلفت اتجاهاتهم. وهذا العامل دائما يكون أطول امدا وأوسع مجالا وأشمل تأثيرا فى العوامل التي تؤدى إلى تفرق اللغات او تعدد اللهجات فعندما تمثل لغة ما ذلك العامل الديني فترتبط بها اللهجات المتفرعة عنها تلقائيا .. وهذه اللغة التي يوجدها العامل الاقوى تشبه تماما يعسوب النحل بين لهجاتها المتفرعة عنها فتكون هى المرجع والمعاد واليها ترد جميع الخلافات وتصحح بها المعايير ..

فاللغة العربية المضرية فى كيانها الحالى ظاهرة للعامل الاقوى الذى هو فوق العوامل الاجتماعية والسياسية والجغرافية . ولولاه ، أى لو لم يكن هناك ذلك العامل الاقوى المتمثل فى كتاب الله العظيم ، لكان مصيرها مصير اللغات العالمية الاخر التي تفرقت إلى فصائل ومنها إلى وحدات مستقلة . واصبح فى ذمة التاريخ ان يبحث عن الأسس المشتركة بين وحداتها وفئاتها .. كما عثر هواة البحوث اللغوية (Philologists) فى اللغة السنسكريتية على أن أصول الاشتقاق متماثلة مع ما وجدوه فى اللغة الايطالية القديمة التي تفرعت منها اللاتينية أم اللغات الاوربية. فسمو هذه بالفصيلة اللغوية بفصيلة الهندية الاوربية رغم البون الشاسع بين اللغة الهندية واللاتينية عام فى الواقع ..

أما اللغة العربية التي عصمها القرآن الكريم والدين الاسلامى من الانشعاب والتفرق والاختلاف فقد ظلت متماسكة الوحدة اللغوية،وكانت اللهجات عنها كالانهار والجداول تتألف ثم تتشعب ثم تتجمع ثم تنصب فى محيط واحد هو : اللغة العربية :ـ

ولم تكن دراسة هذه اللهجات لمعرفة بعدها عن اللغة العربية، وتصحيح اوضاعها فى ضوء القواعد العربية حراما على الباحثين فى يوم من الايام،فقد سجل الجاحظ نماذج من هذه اللهجات .. وفطن إلى مصطلحات العامة واصحاب الحرف .. وقد تحدث فى (البيان والتبيين) عن لغات غير العرب ممن نزلوا بين العرب وأخذوا

لغتهم ولكنهم مع تعصبهم للعربية وحبهم لها وهجرهم للغاتهم الاولى ، ظلوا يتكلمون بهذه العربية بلحونهم المعروفة . فهو يقول : « يستطيع الحاكية من الناس ان يحى نطق الاهوازى والخراسانى والسندي والزنجي .. حتى تجده كأنه اطبع منه » وهو يقول ان النبطى القح .. يجعل الزاى سينا والعين همزة . وقد روى لنا الجاحظ حكايات تثير الضحك والفكاهة عن هؤلاء الناس .. وبالجملة لم يكن هذا النوع من الخلافات اللغوية مثارا للجدل بين ائمة اللغة العربية ... بل استساغه الجميع ولهم شاهد من كتاب الله الكريم الذى ضم كلمات من خمسين لهجة عربية أشار إليها المفسرون ونقلها لنا العلامة السيوطي بالتفصيل فى كتابه معترك الاقران فى معجزة القرآن .

فدراسة لهجة من اللهجات لمعرفة الفصيح من غير الفصيح ومعرفة المتواتر من الشاذ لم تزل موضوعا شيقا تناوله الباحثون المعنيون بقضايا اللغة بكثير من العناية وخاصة لتنبيه الناشئة إلى مواقع الخطأ والزلل .. الا أنهم لم يفردوا للبحث فى اللهجات كتابا يذكر انما ذكروا اطرافا من خواص اللهجات أثناء حديثهم عن الغريب والشاذ والحوشي والنادر من الالفاظ أو أثناء الحكاية عن كلام العجم والمستعمرين . وقد ذكر المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى كتابه (اعجاز القرآن) انه لم يقف على ثبت يدل على ان اللغة العامية دونت فى عصر من العصور او دون منها شيء . الا أنه عثر على ان ابا عقال الكاتب (فى القرن الثالث) قد وضع كتابا سماه : (الملهى) وصف فيه اخلاق عامة بغداد وشيمهم ، ومخاطباتهم وأورد هذه المخاطبات على سردها فى منطقهم والكتاب غير معروف . (١)

ولكن دراسة اللغة العربية العامية فى مدلولها المعاصر تختلف اختلافا فى جوهرها وعرضها عما كان مستساغاً عند علماء اللغة العربية .. فمعنى دراسة اللهجات اليوم هو دراسة هذه اللهجات باعتبارها لغات مستقلة فى كيانها النحوى والصرفى المتنصل عن لغتها الام وهى تستطيع ان تنفرد بشخصيتها وتصبح لغة الكتابة ولغة القضايا ولغة الفنون ولغة جميع مطالب الحضارة ..

---

١ ـ اعجاز القرآن : هامش ٩٧ الطبعة الثامنة .

وهذا النوع من الدراسة للهجات صنيعة اوربية بحتة ، وجزء من اعمال المستشرقين تجاه الاسلام والقرآن والدين الأسلامي بوجه عام . وهم ، كعادتهم في البحوث العلمية وضعوا مقدمات فسوغوا بها محاولاتهم لدراسة اللهجات العربية . فتكلموا اول ما تكلموا عن حقيقة اللغات العالمية واللهجات المتفرعة عنها بصفة عامة ... وشنوا هجوما على اللغات الرئيسية ووصفوها بأنها اغتصبت حقوق اللهجات ولم تعطها فرص النمو والازدهار .. ثم تدرجوا بصورة منطقية إلى البحث عن اللغة العربية فتكلموا عن لهجاتها وبعد هذه المقدمات بدأوا بدراستها لهجة لهجة .

فلنقرأ أولا معا ما كتبوه حول اللغات واللهجات المتفرعة عنها ونرى مدى صحة دعاويهم فى هذا الصدد :

١ – كتب المؤلف الامريكي ((J. Church)) في كتابه اللغة واكتشاف الحقيقة (١)

(Language & Discovery of the Reality) ما يلي : –

(علينا أن نعلم ان كل لغة لها صنفان من القواعد صنف يختص ببيان قواعد لغة كتب لها الغلبة والإنتصار فصارت لغة رسمية اطلق عليها وصف اللغة المعيارية . وصنف لقواعد اللغات الشعبية التي اهملت معالمها . وان وظيفة دارس اللغات اليوم ان يجمع قواعد النحو والصرف والاشتقاق للغات الشعبية ومن الخطأ ان نزعم ان العامة يتكلمون غير مقيدين بقواعد لغاتهم ولغة الخاصة هى لغة منطقية فقط قائمة على أساس من القواعد) .

٢ – وكتب مؤلف انجليزى آخر وهو (J. Brown) في كتابه) اللغة والمجتمع – (Language & the Society) (ان دراسة اللهجات تكشف لنا نواحي غامضة مجهولة للحياة الاجتماعية العامة . فاللغات الرسمية لاتلقى ضوءا الا على الحياة الاجتماعية الخاصة التي تمثلها الطبقات البرجوازية . (٢)

٣ – وذهب المستشرق الالماني (W. Spitta) في مقدمة كتابه) اللغة المصرية العامية) إلى ابعد حد ممكن فى الهجوم على اللغة المعيارية حيث يقول : –

---

١ – اللغة واكتشاف الحقيقة :ص ٧ الطبعة الاولى عام ١٩٢٩ م .

٢ – اللغة والمجتمع ص ٨١ –٩٢ الطبعة الاولى نيويورك ١٩٥٨ م

(ان التقارب بين الامم هو ضالة الحضارة المعاصرة ولكنه لن يحصل مادامت اللغة المفروضة على الشعوب تحول بينها وبين هواة الخدمة الإجتماعية) (١) .

٤ – ويوضح المؤلف الامريكي (C. Jaffer) الهدف من وراء السعى لدراسة اللهجات بقوله :

(إن علم اللغة (Linguistics) ليس نوعا من الترفيه الفكرى كما كان في السابق فانه دخل الآن مرحلة الجد فاننا نستطيع ان نخدم الامم بإبراز مواهبهم الموروثة بوساطة هذا العلم ولو لم يكن هناك اى مغزى من دراسة هذا العلم الا معرفة اللهجات العامية التي قضت عليها اللغات الحاكمة لم تكن الجهود المبذولة فى تقريرها تعد ضائعة . وقد فسحت دراسة اللهجات العامية للمبشرين طريقهم إلى المجتمعات التي كان من الصعب عليهم ان يخدموها وينيروا لها الطريق إلى النور والحياة .) (٢)

لابد أنكم قد لاحظتم فى هذه الاقتباسات ان المؤلفين تكلموا عن جميع اللغات واللهجات العامة بدون الاشارة إلى اللغة العربية وقبل أن اضع هذه الأقاويل على محك النقد ارى ان اورد هنا اقتباسا آخر فيه اشارة واضحة إلى اللغة العربية . وهى خطوة تدريجية إلى الهدف الواقعي وراء هذه المقدمات.وهذا اقتباس من كتاب لهجة تدمر (Palmyra) (٣) لكاتب فرنسي معروف (كانتينو) صاحب المؤلفات الكثيرة عن اللهجات السورية العربية .

فقد كتب يقول : –

(إنه لا داعي للاستغراب اذا اوضحنا الواقع وهو ان اللغة القرآنية .. او العربية الكلاسيكية المزعومة فرضت على منطقتنا) وهو يعنى منطقة تدمر فى الشمال الشرقي من دمشق بواحة فى بادية الشام فتحها العرب على يد خالد بن الوليد فى

---

١ – اللغة المصرية العامية الترجمة الانجليزية لسمونيل طبع عام ١٩٠٥ م .
٢ – ص٥ – ٦ المقدمة ، طبع نيويورك . عام ١٩٥٣ م .

القرن الاول الهجرى (بعد الفتوح الاسلامية واللغة القرآنية نفسها لم تكن الا لهجة من اللهجات الأرامية الجنوبية،وضعت قواعدها بعد مضي قرن على تأليف القرآن. فالدراسة التحليلية تستطيع ان تعيد إلى هذه اللغة استقلالها المسلوب) .

هنا يتضح الفرق بين نظرة علماء اللغة العربية تجاه اللهجات العامية التي كانت عبارة عن معرفة لبعض الخلافات فى النطق وطرق الاداء .. والخلافات الطفيفة فى القياس الصرفى مع حفظ الاسس العامة للقياس فى الاشتقاق والنحو التي تكون كيان لغة من اللغات وبين نظرة الاوربيين والمستشرقين منهم خاصة الذين يريدون أن يجعلوا من كل لهجة عربية لغة مستقلة بذاتها ..

والآن وقد عرفنا من بين تضاعيف آثار هؤلاء اللغويين والمستشرقين انهم يدعون إلى دراسة اللهجات العامية باعتبار انها لغات مستقلة ولكنها مظلومة ظلمها اهل الحكم والسيادة فلم يمكنوها من إبراز شخصياتها بين اللغات. وان دراسة اللهجات تشق طريقاً إلى الخدمة الاجتماعية لتلك الامم وانها خدمة لامة العرب ان تدرس لهجاتها وتجمع لها قواعدها واصولها . هذا هو ملخص ادعائهم فإن كان حقاً ما يقولون ألم تكن اللغات الاوربية أحق وأولى بأن تحظى بعنايتهم . ؟ بأن يزال عنها غبار الظلم والجفوة . ؟ ولكنى استغرب عندما اتصفح فهارس الكتب فى علم اللغة فى مادة (اللهجات) (Dialects) أجد أن مجموعة الكتب التي صدرت فى اللهجات المتفرعة عن النغات الاوربية منذ بداية القرن العشرين إلى عام ١٩٦٧ م عددها ما يلي .. : —

اللهجات الانجليزية . . . . سبعة كتب و ٢٠ خريطة لغوية .
اللهجات الفرنسيـــة . . . . ١٢ كتابا و ٢٥ خريطة .
اللهجـــات الالمانية . . . . ثلاثة كتب قبل الحرب العالمية الثانية و١٢ كتابا بعدها و٤٠ خريطة.
اللهجـــات الايطالية . . . . سبعة كتب و٣١ خريطة .

اللهجـــات السويديـــة . . . . كتابان وخريطتان .
اللهجات النرويجية . . . . ثلاثة كتب وخريطة واحدة .
اللهجـــات الاسبانية . . . . ثمانية كتب وعشرة خرائط .

وهكذا اجد اسماء كتب معدودة فى اللهجات الاخرى بينما سوف تلاحظون ان الكتب التي صدرت فى أوروبا وامريكا حول اللهجات العربية (ماعدا البحوث التي لم تنشر بعد وهى جاهزة للطبع وماعدا المقالات فى الدوريات العلمية) عددها (٨٨) كتابا ومئة واربعون خريطة لغوية .

وكتب باحث لغوى (كانت هيل فى مجلة امريكية : (Journal of Acoustical Society of America) فى عددها السابع لعام ١٩٦٦ م ان أكثر الكتب فى اللهجات صدرت فى أمريكا فى ظرف العشر سنوات الاخيرة هى عن لهجات الصين فانها تفوق المئة فى عددها ثم الكتب التي صدرت حول اللهجات العربية ولكنها بجهود فترة طويلة من الزمن اكثر من ثلاثة ارباع القرن .. ولنترك هنا قصة عدد الكتب ولنعد إلى محتويات الكتب التي صدرت عن اللهجات الاوربية وانى لاعترف بعدم المامي بجميع هذه الكتب فى شتى اللغات وانى لم أطلع إلا على بعض الكتب التي الفت عن اللهجات الانجليزية كما اطلعت على عدد من الخرائط اللغوية فقط .. ولذا سأقصر كلامي على اللهجات الانجليزية . ولنا مجال للقياس المنطقى حول اللهجات الاوربية الأخرى .

إن معظم الأبحاث التي تشملها هذه الكتب التي اطلعت عليها يدور حول المدود الصوتية ومقاطع تلفظ بنـبرات مشـددة ومقاطـع تضغط عليها هى ما يسمى (Intonation, Stress Accent) والاختلاف فى التلفظ بين اللهجات ثم بعض الأمثال العامية ، ومصطلحات اهل الحرف وفهرس الكلمات التي تختلف معانيها فى منطقة من المناطق وليس هناك بعث اطلاقا عن الاصوات اللغوية ولا عن علم البنية وعلم النحو والمفردات كما نجده فى الكتب التي الفت حول اللهجات العربية .. اما الخرائط فهى تصور نفس الشيء مع

الايضاح بالالوان انواع التلفظ والنطق وفى ضوء ما اطلعت عليه استطيع ان اقول بشيء من الثقة انه لم تدرس اية لهجة انجليزية باعتبارها لغة مستقلة وليس سبب عدم دراسة اللهجات الانجليزية هو انها لغة شبه دولية ولا يوجد هناك فوارق ملحوظة. بين لهجة واخرى بل الواقع ان الفوارق فى اللهجات الانجليزية على قصر حدودها اكثر من الفوارق التي نجدها فى اللغة العربية فاننا جميعا نلاحظ ان الحجازى يستطيع التفاهم بلهجته مع السورى او السوداني او المصرى .. وأى واحد من هؤلاء مع الآخر .. ولكنه من المستحيل أن يتفاهم رجل من أهل (ولز) فى لغته مع (كوكني) أو مع رجل من اهل الشمال .. وهناك خلافات كثيرة بين لهجة ايرلندا واسكتلندا وبين اهاليها منازعات ومناقضات لغوية ورغم هذا الواقع فاننا لا نسمع أي نداء يدعو إلى الثورة علي لهجة (بى . بى . سي) (B. B. C.) اللندنية المعيارية .

إن الحديث عن اللهجات العربية العامية لايتم الا باستعراض وجيز للدراسات التي قدمها لنا المستشرقون وأرى انه لايمكن تبويب هذه الدراسات فى ثلاث مراحل زمنية — : —

المرحلة الاولى :

هى الربع الاخير من القرن التاسع عشر . ويمكن ان تسمى هذه الفترة فترة غير فنية حيث لم يكن علم اللغة وعلم الاصوات . بمدلولهما الحاضر قد اكتملت عناصرهما .. كما لم يكن علم اللهجات .. (Dialectology) معدودا من ابحاثه وكانت الدراسة اللغوية آنذاك مقصورة على بيان كلمات لا تستعمل في الفصحى وبعض الزيادات الحرفية فى بعض الافعال والاختلاف الصوتى فى مخارج بعض الحروف .. مثل مخارج الجيم والقاف وحروف الاطباق الاربعة وزيادة باء فى المضارع للإفادة عن معنى الحال وتلاشي الاعراب والتنوين وعدم استعمال صيغ التثنية فى الافعال مع بقائه فى المفردات والاسماء وامثال هذه الامور الطفيفة .. وقد صدرت على حد علمى — اربعة كتب فى هذه الفترة . وكلها للمستشرقين الالمان:

١ ــ قواعد اللغة العامية المصرية (Grammatike des Arabichen) للمؤلف (Dialeces Von Agypten, W. Spitta) طبع عام ١٨٨٠ م في مدينة ليبزج (Lepezig).

٢ ــ ملاحظات حول اللغة المصرية العامية (Lehrabuch der agepto Arabichen) للمؤلف (K. Vollers).

(طبعت بالقاهرة عام ١٨٩٠ م وترجمت إلى الإنجليزية عام ١٩٠٠ وطبعت في لندن).

وهذان المؤلفان يعدان من طلائع الكتب التي الفت حول اللهجات العربية حيث لم أعثر على اسم كتاب الف قبلهما في قائمة الكتب عن اللهجات العربية في الموسوعة الاسلامية أو الموسوعة البريطانية ، او الفهارس العامة. وقد دعا المؤلف (سبيتا) إلى إحلال العامية المصرية مكان اللغة العربية الفصحى. وقال في مقدمته انه من اسباب تأخر المصريين أنهم يتكلمون بلغة ويكتبون بلغة أخرى . وهناك لغة للشعب ولغة للتدريس والقضاء والمنابر. وقد تكلم الاستاذ الاكبر احمد عبد الغفور عطار باسهاب وتفصيل حول هذا المؤلف . ونقل اقتباسات طويلة معربة في كتابه .. (الزحف على لغة القرآن) اما الكتاب الثاني للمؤلف (فولرس) وهو كذلك محاولة اخرى نحو إثارة المصريين على القضاء على اللغة العربية الفصحى وانه اتهم العربية الفصحى بالجمود والعسر والصعوبة وفقدان صلاحها لمسايرة الحضارة ومطالب العلوم .

واستطاع المؤلفان ان يجلبا إلى دعوتهما بعض الكتاب والصحفيين من الاقباط والمسيحيين ممن قاموا بدعوتهما ودعوا بدعوتهما وجمعوا حولهم عددا من الانصار الذين صفقوا لهم . فكانت حركة مركزة وحملة شعواء على لغة القرآن تصدى للرد عليها كبار الكتاب من علماء العرب واستطاعوا اسكات هذه الصيحات النافرة في اوانها وقتل هذه الجرثومة قبل ان تستفحل وتكبر .. وكان ممن جاهدوا في رد هذه المكيدة المرحوم السيد محمد رشيد رضا . فقد كتب في مقدمة (إعجاز القرآن للرافعي) . قد نبتت في مصر نبتة من الزنادقة والملحدين في آيات الله

الصادين عن دين الله وقد سلكوا فى الدعوة إلى الكفر والالحاد شعبا جددا والتشكيك فى الدين طرائق قددا فمنهم من يدعو إلى إستبدال اللغة العامية المصرية بلغة القرآن الخاصية المضرية، والغرض من هذا وذاك صد المسلمين عن هداية الاسلام وعن الإيمان باعجاز القرآن) وقال الامير شكيب ارسلان فى مقاله (ما وراء الأكمة) نقله الرافعي فى كتابه (تحت راية القرآن) (ومنهم من يشير باستعمال اللغة العامية وإستبدال المصرية بالمضرية بحجة انها أقرب إلى الافهام وهم يريدون هدم الامة فى لغتها وآدابها خدمة للاستعمار الاوربى ومبدئه ... وتفريق الشمل العربي ومحاربة القرآن وجميع الآثار الاسلامية) . وبالجملة فان الكتابين المذكورين قد تركا اثرا ودويا فى المجتمع العربى الاسلامي وكان لهما فضل لا ينكر وهو انهما بجهرهما عن الهدف الاصلى وراء هذه المحاولات أيقظا أهل الغيرة والعلم للرد عليهما وعلى اتباعهما.اما الكتاب الثالث الذى صدر فى هذه الفترة هو عن الامثال العامية لاهل مكة المكرمة للمستشرق الهولندي (Smouch Hurgronge) . (وإسم كتابه بالالمانية) (Mekkaniche Spriorture und Redesantere) (أى الامثال العامية المكية ولغتها) . وهذا المؤلف يحتوى (٦٠) ستين مثلا عاميا بالنص العربي وتليهما شروحهما باللغة الالمانية وفى هامشه قصص شعبية مكتوبة باللاتينية مع ترجمتها وبين هذه كلمات نابية لا تكتب عادة حيث انها جمل فى السباب والشتائم يتناقلها اولاد الحارات والاسواق . طبع هذا الكتاب عام ١٨٨٦ م فى مدينة (Lipizge) ثم افردت تلك القصص فى كتيب صغير أسماه المؤلف (أخلاق العرب) ولم يكن هذا الكتاب يستحق ان يذكر بين مراجع البحث إلا أنه أول وآخر كتاب على حد علمى كتب حول لغة اهل مكة المكرمة . ثم ان هذا الكتاب يعطى فكرة اساسية لاسلوب المستشرقين ومعالجتهم الموضوعات الأدبية وعمل المؤلف (هرجرينيه) الذى قضى فترة قصيرة فى مكة المكرمة متظاهرا بالاسلام لا يعدو أن يكون مشابها لعمل مراقب البلديات الذى لايقع نظره إلا على القمائم والقاذورات مع الفارق ان المؤلف لم يرد الا كشف مواضع القاذورات

للناس بينما موظف البلدية يهمه تطهير المنطقة.وكان من الميسر له ان يجالس العلماء وأهل العلم ويجلس في حلقات الدروس ويستمع إلى المواعظ والذكر فيقيد فى مذكراته أساليب الكلام الفصيح ، ومناظرات أهل العلم ولكنه لم يفعل هذا ولا ذاك وانما طاف فى الحارات والاسواق واسترق السمع لما انسجم معه طبعه وكل يميل إلى ما يستهويه .

اما المرحلة الثانية :

لدرس اللهجات العامية التي قام بها المستشرقون . فهى فترة مابين بداية هذا القرن إلى ما قبل الحرب الثانية . فبلغ علم اللغة الحديث فى هذه المرحلة مبلغ النضج والإكتمال بجميع عناصره واكتشف فيها آلات خاصة لتسجيل الاصوات وتحليلها لتقرير موضع النطق ومخارجه .

أى ان المستشرقين فى هذه المرحلة قد ركزوا اهتمامهم نحو اللهجات العامية التي ينطقها العرب فى سورية وفلسطين ولبنان . يقول المؤلف :
(Charies A. Erguson) فى مؤلفه (تخطيط الاعمال اللغوية)
: (Aplonging of Linguestic Works) :

ان الكتب التي صدرت فى دراسة اللغات السورية قبل الحرب العالمية الثانية تمتاز بضخامة الحجم ومراعاة الدقة والصحة وطريقة العرض وهذه الدراسات عالية جدا فى الكيفية والكمية معا (ظهرت فى عدة لغات اوربية) .

ومن أهم الكتب التي ظهرت فى هذه الفترة هى للمؤلف بايرو (Bauer) عن لهجة القدس عام ١٩١٣ م وللاب فيغالى عن لهجة قرية لبنانية تسمى العبادية عام ١٩١٩ م وللمستشرق (G. Bergstrasser) اللغوى برجستراسر حول لهجة مدينة دمشق ١٩٢٤ م مع اربعين خريطة لغوية.اماالبروفيسور كانتينيو (J. Cantineau)

وهو اكثر المؤلفين انتاجا فقد اصدر عام ١٩٢٤ كتابا عن لهجة تدمر وحوران وفى عام ١٩٣٩ م اصدر كتابا آخر عن لهجة دروز حوران . اما الآخرون مثل

ميتسن Mathsun وبورنيرو Pournero فقد اختاروا مناطق أخرى من الشام ولبنان مثل حوران ، وزحلة ودمشق وحماة وحمص . ومن ناحية أخرى اهتم بعضهم مثل (اسبيرو) (Scipro) وما سبيرو (G. Maspero) بالبحث عن اللهجات غير العربية التي ينطق بها في الامكنة المجاورة للدول العربية مثل الاسكندرية وجبل الاكراد . أما الاسباب التي دعت المستشرقين إلى الاهتمام بهذه المنطقة بالذات فهي على حد قولهم ان هذه المنطقة هي ملتقى الحضارات السامية القديمة وفيها توجد لهجات قديمة متفرعة من أصول آرامية وكنعانية. ومثال ذلك حسب زعمهم ان لهجة (معلولا) (قرية في سوريا شمالي دمشق من قرى القلمون (المنجد) لهجة سريانية ولهجة تدمر لهجة آرامية ثم هذه المنطقة غنية بالآثار والنقوش التي تساعد على فهم اللغات القديمة والصلات التاريخية بينها.ولكن هذا لا يعني ان المستشرقين أهملوا مناطق أخرى بل مسحوا كل منطقة مسحا لغويا على حد تعبيرهم وقسموا اجزاء بلاد واحدة إلى عدة مناطق لغوية مثل لهجة الفلاحين في مصر ولهجة المثقفين في القاهرة ولهجة أهالي السويس ولهجة الاسكندرية . وفي العراق لهجة بغداد العاصمة ولهجة الموصل ولهجة البصرة ،، وهناك توزيع آخر للبحث عن اللهجات وهو لهجة يهودالعراق ولهجة المسلمين في العراق والفرق بينهما . ويجد المطلع على تلك البحوث اللغوية التي ظهرت في هذه المرحلة ان المستشرقين امتنعوا عن الدعوة إلى إحلال اللهجات المحلية مكان اللغة الفصحى وقد انقطعوا إلى مهمتهم في صمت وتركيز فكرى بدون التدخل فيما يجرى في تلك المناطق من مناورات سياسية ودعوات عنصرية محلية وذلك حسب اعتقادى انهم وجدوا في تلك المناطق من يقوم بهذه المهمة من المسيحيين والأقباط وبعض المسلمين كذلك .

وقد عمت الدراسات في هذه الفترة أراضي العراق واليمن وحضرموت وسوقطرة والخليج ومجموعةالكتب التي صدرت في هذه الفترة يقدر عددها ... بثمانية وثلاثين كتابا وستين خريطة لغوية حسب بيان قائمة الكتب في اللهجات

العربية فى الموسوعةالاسلاميةتحت مادة اللهجاتالعاميةالعربية (Vernacular Arabiya).

أما المرحلة الثالثة :

فتبدأ من بعد الحرب العالمية الثانية لعامنا هذا وقد تدفق فيها مؤلفات كثيرة منوعة واطروحات قدمت فى جامعات امريكا واوربا للشهادات العالية عن لهجة كل قطر عربي من الخليج إلى المحيط . وتبعا للتخطيط العلمى المركز فقد وزعت المناطق العربية فيه إلى قسمين كبيرين قسم غربى ويشتمل على المغرب وتونس وليبيا والجزائر وبعض البلدان الافريقية،وقسم شرقى يشتمل على مصر والسودان وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية والخليج والابحاث التي صدرت فى هذه المرحلة قد تناولت فروعا جزئية من البحث مثل الامالة فى اللهجات السورية ،

وأنواعها للمؤلف (سدنى هيل) والمدود الصوتية فى لهجة الرياض للدكتور عوض بدوى والتبدلات الصوتية فى لهجة الجزيرة للدكتور منير صروف ولغة القصص الشعبية فى الكويت للآنسة آمنة حمدان، والأدب الشعبي فى حضرموت للبروفيسور (سارجنت) استاذ الدراسات الاسلامية فى جامعة كمبرج .. وخليفة (اربرى) حاليا،ولهجة قطر ودبي والشارقة للدكتور (جانستون) مدرس اللغة العربية فى معهد الدراسات الاسيوية الافريقية بجامعة لندن. وهناك فرق آخر بين الكتب التي الفت فى المرحلتين الاولى والثانية وبين الكتب التي تؤلف فى هذه الفترة وهو أن الطائفة الأولى من الكتب كانت مفهومة لكل طالب اراد الإطلاع عليها . اما الكتب الجديدة فهى مملوءة بالمصطلحات والجداول والرموز التي لايمكن فهمها لمن ليست له ضلاعة فى هذا الفن .

إن هذا الإستعراض العام لجهود المستشرقين فى دراسة اللهجات العربية العامية وما وضعوا من المقدمات التمهيدية حول دراسة اللهجات بصفة عامة يكشف عن التناقض فى سلوكهم مع لغاتهم ومع لغات الشرق العربي بما يحملنا ان نتساءل أهذه الدراسات تهدف إلى خدمة أمة العرب ام هى ثورة على لغة القرآن ؟ ؟ .

ولندع التاريخ والحقائق الواقعية يتوليا الاجابة على هذا السؤال ولنقرأ مثلا فى كتاب (خزائن الكتب العربية) للمؤرخ المسيحي اللبناني (فليب دى طرازى) قوله : راح البابوات فى القرنين الثاني عشر والثالث عشر يغرون قصادهم ورسلهم ورهبانهم بتعلم العربية ترويجا لخطتهم الكاثوليكية وقرر مجمع فيننا المنعقد سنة ١٣١١ م برئاسة البابا اقلبيس الخامس أن تؤسس دروس عربية فى روما على نفقة الحبر الاعظم وفى باريس على نفقة الملك وفى اكسفورد وبولونيا على نفقة الرهبان وذلك لكي يكون منهم المبشرون والوعاظ الذين يطوفون بالبلاد الشرقية وكان سفهاء الفاتيكان مكلفين من قبل البابا لمراقبة الدروس العربية (الجزء الثاني ص ٥٧٧).

ويقول المستشرق الايطالى كايتاني فى كتابه (حوليات الاسلام) .. إننا لم نرد العربية وانما أردنا أن نفهم سر المصيبة الإسلامية التي انتزعت من الدين المسيحي الملايين من الأتباع فى شتى انحاء الأرض . ولايزالون حتى اليوم يؤمنون برسالة محمد ويدينون به رسولا . وعندما نرى إهتمام المستشرقين بلهجات فلسطين وسوريا ولبنان لايسعنا إلا أن نتذكر ما قاله : (فليب دى طرازى فى صفحة ٦١١ فى الجزء الثاني من كتابه الخزائن) ونصه :

(ان الاستشراق كان فى بداية امره قائما لغاية دينية محضة ثم توسع علماء الاستشراق فى اهدافهم فجعلوه سياسيا ولغويا معا .)

فلنقف عند قوله سياسيا ولغويا لنرى نصيب السياسة فى احتضان حركة الاستشراق وتوجيهها،ولنعرف الهدف وراء التحقيقات اللغوية. وقد اعجبني تعبير الاستاذ محمد الغزالى فى وصف هؤلاء المستشرقين الذين لبسوا مسوح الخدمة الاجتماعية لأمة العرب ، وأرادوا قطع صلة الامة الإسلامية بالعرب وقطع صلة العرب بالقرآن تحت ستار من البحث والتدقيق . يقول الاستاذ الغزالى فى كتابه (نظرات فى القرآن) مشيرا إلى هؤلاء وامثالهم : —

(ألست ترى اللصوص إذا ارادوا سرقة بيت اجتهدوا فى تحطيم مصابيحه او قطع تيار النور عنه حتّى اذا عم الظلام وسرت الفوضى اشتغلوا بالسلب والنهب وهم آمنون . ان ذلك ما فعله الغرب وهو يمد يده الآثمة لسرقة العالم العربي الاسلامي. لقد ركز هجومه على القرآن نفسه ليأتي على الجزء الباقي من إستضاءة المسلمين به حتّى إذا أقام حجابا كثيفا بين الأمة المصابة وبين قرآنها خلا له الجو ففعل ما يشاء).

وأعتقد ان فى هذا التشبيه الرائع غنى وكفاية عن كل جواب . وهذا تصوير للواقع الذى ندرسه فى محاولات المستشرقين واتباعهم تجاه لغة القرآن الكريم . أما أكثر شيء يمكن لنا أن نستفيد من هذه الدراسات هو العلم بالشيء للحذر منه .

• ● •